تشريف مكة بين متوتين

استعرضنا في المقالة السابقة التى نشرت في العدد الثانى من المجلة تاريخ العلاقات بين شريف مكة غالب بن مساعد والدولة السعودية ورأينا كيف بدأت بطلب من الشريف للامام عبد العزيز بن محمد يرجوه ارسال احد علماء الدعوة الى مكة ليشرح له ولعلماء مكة حقيقة دعوة التوحيد وعندما وصل مبعوث الامام الشيخ عبد الله بن عبد الله الحصين الى مكة وجد الشريف والعلماء غير مستعدين للجلوس اليه أو للاستماع منه واجراء المناظرات في أصول التوحيد وكان ذلك نتيجة للمخاوف التى نفثها العلماء في قلب الشريف وقولهم له : ان هؤلاء القوم ـ يقصدون السعوديين ـ ليس عندهم بضاعة الا ازالة نهج اجدادك ورفع يدك عن معتادك وجوائز بلادك ـ فطار لب الشريف وارتعش قلبه ثم دخلت العلاقات في سلسلة طويلة من المعارك دامت اكثر من اربعة عشر عاما انتهت بخضوع الشريف خضوعا تاما للامام سعود بن عبد العزيز واعلانه ذلك الخضوع في خطاب وجهه الى سعود يقول فيها : ان كلمة منك تؤخرنى وتقدم غيرى ·

تلقى الامام سعود رسالة الشريف فما كان منه الا أن كتب على ظهرها رسالة منه الى على باشا والى بغداد ـ لا لقلة في الورق لديه ـ ولكن ليبلغ والى بغداد وبالتالى الدولة العثمانية أن الحجاز والشريف أصبحا تحت نفوذ الدولة السعودية · وهذه ترجمة الوثيقة التركية التى اشتملت على ترجمة رسالة الامام سعود بن عبد العزيز الى التركية لان الاصل العربى لهذه الرسالة لم نعثر عليه ·

وهذا خطاب سعود بن عبد العزيز الى على باشا والى بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز الى جناب على باشا

السلام على من اتبع الهدى وبعد • اننى أدعوك الى الاسلام فاقبل حتى تحصل على السلامة وقولى هذا يرتكز على الواقع الذى جعله الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم عهدا فيما بيننا بأن الاسلام قائم على عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة سواه واداء فرائضه وتجنب حرماته فاذا هداك الله الى قولى هذا فالخير لك في بلوغ الاسلام ونفض ما سواه كما قال الله تعالى : فان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم وحسبنا الله ونعم الوكيل وأنه ليس لنا من عدو في عداد أهل الاسلام غيرك ولا ننازع غيرى في ولايته وقد ادخل الله تعالى الحرمين في اسلامى فامنهما وجعلهما في اطمئنان وانى ابشرك بأن اسلامى قد انتشر في كل الاماكن والجبال والورقة المرسلة هى ورقة الشريف وان تسطير كتابى عليها لم يكن لمجرد قلة وجود الورق بل لأدلل بها على اقرار الشريف وأهل الحرمين على ما أنا عليه من دين وعلى صحة اسلامى ولتعرف قولهم ببطلان الاديان الاخرى وان مجيئنا الى طرفكم لنجدكم في رأس الهندية وعلى نية مواجهتكم ولكن الله تعالى لم ييسر لنا هذا التلاقى وهذا عذر لك هذا وان فئة من رجالى اتجهت بالسلالم نحو النجف الاشرف ولما لم تصل السلالم القلاع الطولانية عادت تلك الفئة ولم أكن معها فاذا هداك الله للاسلام فانى ابشرك بأن أجعل في خدمتك ٢٠٠ ألف من الرجال لا تلتزم باعالتهم فيكونوا تحت تصريك في توجههم حيث تريد من الاطراف وما ترغب من حروب • لقد دخلت الشام في اسلامى وان مقدمى رجالنا الذين قصدوا الحج في هذه السنة قد تعاهدوا مع أربع باشوات وقد دخل الشريف في الاسلام كما دخل عبد الله باشا ابن العظم وتعهدا على ما هو حسن وصلى الله على محمد وعلى اله وصحبه وسلم

تلقى على باشا والى بغداد الرسالة فما كان منه الا أن ارسلها الى الحكومة العثمانية ـ وهو الامر الذى قصده سعود أساسا من ارسال رسالته محررة على ظهر رسالة الشريف لان على باشا لم يكن بحاجة الى العلم بخضوع الشريف لسعود فهذه المعرفة مؤكدة بحكم قربه من نجد وبحكم سرعة وصول الاخبار اليه عن العلاقة بين الشريف وسعود عن طريق قوافل الحاج العراقى ـ فاتخذ سعود من على باشا رسولا يبلغ الدولة العثمانية بانتهاء سيادتها على كل أرض الجزيرة العربية بل وباستعداده لمقاومة الدولة بجيش قوامه ٢٠٠ الف رجل يتحرك من العراق لغزو الدولة في عقر دارها ـ ولعل أخبار تلك الرسالة بلغت مسامع محمد على في مصر ـ وكان في بداية توطيد سلطته في مصر فاتخذها هدفا يسعى الى تحقيقه ويغزو الدولة في عقر دارها بجيوش تتحرك من مصر بعد تاريخ تلك الرسالة بأكثر من ثلاثين عاما •

نص الترجمة التركية لرسالة سعود بن عبد العزيز
الى على باشا والى بغداد

وصلت الرسالة الى السلطان فأمر بعقد مجلس المشورة لدى شيخ الاسلام لدراسة (١) ماكتبه الشريف الى سعود وما حرره سعود على ظهرها الى والى بغداد وما أضافه والى بغداد من أخبار الحرب مع السعوديين ، وتبين للمجلس أن الورقة في شكلها هذا تدلل دلالة قاطعة على أن الشريف أضحى تابعا لسعود وأن اطراف الحجاز عامة منقادة اليه ـ ولما قرئت ترجمة الرسالتين اقتنع المجلس أن سعودا قد عقد اتفاقية مع الشريف ـ وتساءل الحاضرون عن سبب ارسال سعود ورقة الشريف الموجهة اليه ذاتها ؟ ثم أخذوا يفحصون خاتم الشريف على الرسالة فوجدوه غير الخاتم الذى بصمه على الاوراق الاخرى التى ارسلها الى استانبول ـ وهذا يدلل على تخوف الشريف من احتمال وقوع الرسالة في ايدى الدولة العثمانية بطريقة ما فاحتاط للامر وبصمها بخاتم آخر مغاير للمعروف لدى الدولة ـ غير أن خط الرسالة والاملاء والسبك في العبارات قد رفع الاشتباه في كون الورقة هى ورقة الشريف غالب وبهذا ظهر أن هناك اختيار بأن تكون مصالحة الشريف لسعود ضرورية تسلك سبيلها في المسايرة الظاهرة التى المح اليها في خطاباته التى ارسلها من مكة ·

---

(١) وثيقة رقم ١/٢ـ٤٧ مجموعة رئيس الكتاب ـ وثائق دارة الملك عبد العزيز

ودار حوار في المجلس حول عبارة الشريف عن تجاوزه الشام ومصر واليمن وضبطها وتساءل البعض عما يقصد الشريف بذلك ـ فهل يقصد الدولة العثمانية وقال البعض ان الشريف يقطع صلته بسعود اذا أظهرت الدولة العثمانية القوة واقتنع المجلس بهذا المفهوم الاخير لان خضوع الشريف لسعود في ظل تلك الظروف انما هو ضرورة لا اختيار فيها ما دام مغلوبا على أمره اذ ماذا عساه أن يفعل غير ذلك لان ما اكتسبه سعود من القوة يجعل مقاومة الشريف في درجة المحال وهذا ظاهر في رسالته الى والى بغداد حين يظهر السطوة ويعلن استعداده لتقديم ٢٠٠ الف عسكرى ـ واستشعر المجلس أن سعودا يقصد توجيه هذه القوة ضد الدولة العثمانية كما فهم المجلس أن والى الشام عبد الله العظم قد قبل الدعوة السلفية وتساءل الحاضرون : ماذا كتب والى بغداد في رده على سعود ؟ ولما تلى رد الوالى وجدوه مشتملا على ايات قرانية وعبارة : السيف أصدق انباء من الكتب ـ ولكنهم ادركوا أن والى بغداد لن يستطيع التحرك من بغداد بسبب التهديدات الايرانية ٠

ومن جهة أخرى كان سعود بن عبد العزيز يتوجس من نية الشريف ووضع في اعتباره أنه لا بد أن يستثير عليه الدولة العثمانية سرا مهما أظهر من الخضوع وحسن النية ووضع خطة عملية لمنع أية قوة عثمانية من الوصول الى مكة سواء كانت غازية أو مرافقة للحاج ، وأصدر أوامره عام ١٢٢١ الى كل من عبد الوهاب بن عامر أمير عسير والمع وفهاد بن سالم بن شكبان أمير بيشة وعثمان المضايفى أمير الطائف وتهامة وكذلك حجيلان بن حمد على رأس أهل القصيم ومحمد بن عبد المحسن بشوكة أهل شمر والوشم وواعدهم المدينة المنورة حيث التقوا هناك بمسعود بن مضيان وأتباعه من حرب وجابر بن جبارة ، وخرج سعود من الدرعية الى مكة وأرسل فراج بن شرعان العتيبى ورجاله الى المدينة ومعه الاوامر بمنع الحواج التى تأتى من الشام واستانبول فلما أقبل الحاج الشامى بقيادة عبد الله العظم أرسل اليه الامراء أن لا يقدم اليهم وعليه الرجوع الى أوطانه ورضخ العظم للامر وعاد من حيث اتى ٠

اصبح الشريف غالب معزولا كلية عن الدولة العثمانية ولم يجد مفرا من الرضوخ لسلطان سعود بن عبد العزيز ـ ويسجل الشيخ عثمان بن بشر سلوك الشريف حيال سعود خلال السنوات الاربع التالية بقوله :

في عام ١٢٢٢ حج سعود حجته الرابعة ونزل قصر البياضية وزاره الشريف مرارا وصار معه كالاخ الشقيق فيزوره أحيانا وحده ومعه رجل أورجلان وأحيانا بخيله ورجاله ٠

وفي عام ١٢٢٣ : نزل سعود قصر البياضية واقام فيه وغالب الشريف يزوره في كل وقت وهو لسعود بمنزلة أحد نوابه وأمرائه الذين في نجد بالسمع والطاعة وبذل سعود لغالب هدايا وتحفا جزيله

وفي عام ١٢٢٥ : شاهدت سعودا محرما بالحج راكبا مطيته في نمرة لصلاة الظهر وخطب خطبة بليغة ثم أقبل الشريف غالب فوق حصانه وليس معه الا رجل واحد ونزل سعود من كور مطيته وسلم عليه وتعانقا وسلم عليه المسلمون فأقيمت الصلاة

جمعا وقصدوا بعدها عرفة ودخل سعود بعد ذلك مكة واقام فيها الى العشر الاواخر من ذى الحجة وأهدى غالب على سعود هدايا سنية وهو لسعود كأحد أمرائـه الذين في نجد ويتكرر نفس المشهد في حجة سعود الثامنة عام ١٢٢٦

وفي العام التالى (١٢٢٧) حج سعود حجته التاسـعة واجتمع بالشريف غالب مرارا وكانتالقوات العثمانيةبقيادة طوسونباشا قددخلتينبع والمدينةالمنورة وبدأت زحفها نحو مكة واستعد سعود لهذا اللقاء فأبقى في مكة جزءا من قواته ـ وقبـل أن يخرج من مكة أقبل الشريف على سـعود يبايعـه عن الخيانة والغدر ويعـاهده على الوقوف بجانبه في وجه الغزاة ـ ثم أمر سعود ابنه عبد الله ومن معه من القـوات بالنزول في وادى مر (فاطمة) قرب مكة ٠

وما كادت طلائع قوات طوسون تقترب من مكة حتى نكث الشريف غالب عن عهده واعلن عداءه للقوات السـعودية المتمركزة في مكة فأسرع عبد الله بن سـعود بسحب هذه القوات ورحل بكامل قواته الى الريعان ثم الى العبيلا ثم الى الخرمة ـ ودخلت قوات طوسون مكة في رجب ١٢٢٨ لتجد الشريف غالب في استقبالها مرحبا ٠

وانقلب الشريف غالب من تابع لسيد نجد الى تابع لقائد قوات الغزو وثارت كوامن الانتقام المختزنة في نفسه ضد صهره وعدوه القـديم عثمان المضـايفى وقاد فرقا من القوات العثمانية وهجم على الطائف وحاصر المضايفى وقواته في قصر بسل ، واستطاع عثمان أن يهرب من القصر فوقع في يد أناس من العصـمة من عتيبـة فسلموه الى الشريف فما كان منه الا أن سلمه الى طوسون الذى ارسـله الى مصر ومن مصر ارسل الى استانبول حيث قتـل ٠

لقد كان الشريف غالب معارضا من الاسـاس لفكرة قدوم قوات عثمانيـة الى ارضالحرمين لقتال السعوديين وانبرى بنفسه يخوضعدة معارك لكيلا تقوم الحكومة العثمانية بارسال قواتها ٠ ولما قامت هذه الحكومة بتكليف والى بغداد سـليمان باشا بالهجوم على نجد سار هذا بجيوشه الى الحسا وفشل في تحقيق أى انتصـار على السعوديين وانتهت حملته بابرام صلح معهم في رمضـان ١٢١٣ ـ وقد أحنق هـذا الصلح الشريف لانه كان يأمل أن يتم القضاء على القوة السعودية الناهضة بجهـود غيره وفي أرض بعيدة عن الحرمين أو على الاقل أن تستمر المعارك طويلا تخفيفـا للضغط الواقع عليه من جانبهم ، وأخذ يشكو من تصرف والى بغداد في رسائلـه المتكررة الى الدولة العثمانية ويتهمه بالخيانة ٠ كما كتب الشريف الى والى الشـام يوسف كنج يقترح ارسال قوات من بغداد والشام لتخليص الحرمين من السعوديـين بدلا من مصر لانه يعلم علم اليقين باستحالة تحرك قوات من بغداد بسبب ضعف تلك القوات أمام قوة السعوديين وبسبب تهديدات ايران للعراق كما يعلـم باسـتحالة اقدام والى الشام على مغامرة سوق الجيوش الى الجزيرة العربية ـ وفي رسالة أخرى الح الشريف الى أنه سيمنع نزول أية قوة قادمة من مصر مما جعل محمد على يعلـن عزمه على انزال قواته بالقـوة اذا ما عارضه الشريف (وثيقة رقم ١٩٦٤٧ بتاريخ ٢٢ شـوال ١٢٢٤) ٠

لقد كان من الاصلح للشريف أن يستمر الحال كما هو عليه تحت سيادة الدولة السعودية حيث يتمتع بالامان والاستقرار اللذين حرم منهما وهو يحاربهم في ظل التبعية العثمانية ، كما أنه يتمتع بواردات جمرك جدة لنفسه ـ ويعلم جيدا أن الدولة العثمانية تضمر له نية العزل منذ اللحظة التى اعلن فيها ولاءه لسعود فاذا ما تحركت قوات من مصر وسخرت موارد تلك البلاد الغنية للحرب فان مصيره أصبح واضحا ومحتوما ٠

حاول الشريف أن يدفع أو يؤجل هذا المصير بوسيلتين :

الاولى عند ما كتب الى طوسون باشا وهو في المدينة ينصحه بأن يحقن الدماء ويباشر مفاوضات الصلح مع السعوديين حتى اذا ما تحقق ذلك عادت الجيوش الغازية من حيث أتت قبل أن تصل الى مكة ٠

والثانية عند ما اشترط على محمد على الا يسلم مدينة جدة الا بعد فتح المدينة المنورة ـ وبعد أن فتحت ـ راوغ في تسليم قلعة جدة حتى وصلت القوات واخذتها عنوة ٠

ثم جاء محمد على بنفسه الى مكة لاداء فريضة الحج ولعزل الشريف في ذى القعدة ١٢٢٨ ، وقام بعزله واعتقاله في ٢١ ذى القعدة ١٢٢٨ ثم كتب الرسالة التالية بتاريخ غرة ذى الحجة ١٢٢٨ الى رشدى باشا نائب الصدر الاعظم في استانبول « اذا كنا قد أبنا قبل الان الى معتمدنا في استانبول نجيب افندى ما كان عليه حضرة صاحب السيادة أمير مكة المكرمة الشريف غالب من الاساءة والرخاوة وارتكاب الكذب فاننا الان قد بينا اليه ما لاح لنا من عرض لتحركنا من مصر بكثرة من الخيالة والمشاة والمعدات المقتضية بقصد الاتجاه نحو الدرعية دون النظر الى ما يستدعيه ذلك من مال للوصول حالا الى حسن الختام ٠٠٠ فكتبنا الى المشار اليه خاصة مكررين هذا مؤكدين عليه ومشددين بأن يتدارك الجمال بالاجرة أو يشتريها بالثمن المناسب ٠ فلما تيسر لنا الوصول الى جدة في اليوم الثالث من الشهر الحالى ذى القعدة الشريفة اتخذ من مجيء ولدى طوسون احمد باشا وسيلة للاستقبال فأتى الى سفينتى وتلاقى معى طارحا الاعذار الهباء عما تعهد به من تدارك الجمال بالثمن المناسب أو بالاجرة وأنه لم يتداركها ولم يجهزها بل انه ـ عدا ذلك ـ لم يظهر حتى الان أى شيىء يفيد مصلحة الحجاز لطوسون باشا ولا لاى مخلوق ولما باسطت المشار اليه مصاحبا فانه كان يبنى الموانع من حيث كان مجمل كلامه منتجا لليأس والفتور٠

ولما كان شأنه هذا قد فهمناه وتحسسناه من كل الوجوه فقد كنا نميل الى التقدير بأنه قد يؤثر كلامنا معه فيستبدل أخلاقه الذميمة بالاخلاق الحميدة فيخدم الدولة العلية ويدفعنا الى التماس استمرار وجوده في منصبه ولكن فقد كان ما جبل عليه وفطر به من اللجوء الى الحيل والخديعة يوحى بأنه يريد استنفاد ما في باطنى وأن يتخذ معى مثل ما اتخذ من الحيل مع حضرات الوزراء العظام السالفين ولما أضحى

معلوما في يقينى أنه اذا لم ينزل المشار اليه عن منصبه فان مصلحة الدرعية لن تبلغ الخاتمة بسبب حركاته غير اللائقة بشنآن شرافته وعدا ذلك فانه جعل الذخائر الوافرة المرسلة من مصر والخاصة بالعسكر في قلعة مكة المكرمة الحصينة وحشر فيها اكثر من ٢٠٠٠ رجل من المغاربة الى جانب العساكر المعروفة باسم اليمن والسليمانى وقال وهو مغتر بنفسه بأنه على استعداد للحرب بما يزيد عن ٢٠٫٠٠٠ رجل وعدا ذلك فانه لم يشعل قنديلا في داخل بيت الله وخصص زيتها لقصره وحصل رسما باسم « وطأ الارض » على الحجاج وامثال ذلك من البدع الشاذة ٠

ولما كانت لدينا المعدات والأدوات والعساكر الوافرة وفي يدنا ما يكفى الامور الحجازية من الاموال واللوازم ولسنا في حاجة الى شيىء فيما عدا الجمال التى كان من الممكن تسهيل تداركها فقد اغمضنا اعيننا عن تدارك الجمال ولم يؤثر فينا ما ظهر وما تقصده المشار اليه من كل ما طرحه من امهال وبدا منه من اهمال في شأن الدرعية واقدمنا في اليوم الحادى والعشرين من شهر ذى القعدة الشريفة الحالى على انزاله من منصبه وأرسلناه معززا مكرما الى جانب مصر ورفعنا كل ما أحدثه من من خصوصات من حيث كان ذلك لدى أهل مكة عيدا ٠٠٠ »

ثم باقى الرسالة الذى يتناول تنصيب الشريف يحيى محله ٠

ويلاحظ أن الرسالة لم تتناول من قريب أو بعيد الاسلوب الذى تمت به عملية العزل والاعتقال ـ وقد وردت هذه العملية بالتفصيل في كتابى المؤرخ عثمان بن بشر والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وكلاهما كتب ما وصل الى مسامعة عن الحادث من القبض على الشريف وحبسه وأخذ جميع ما في خزائنه من الذهب والفضة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ـ كما ورد وصف تفصيلى للحادث في وثائق شركة الهند الشرقية (في تقرير رفعه القنصل البريطانى في المخا بتاريخ ٣٠ مارس ١٨١٤ الموافق ٨ ربيع الثانى ١٢٢٩) ـ يقول التقرير :

ورد من جدة الى أحد التجار المرموقين في المخا رسالة تقول :

« ٠٠٠٠ كان الشريف يقوم بضيافة الوالى وعندما جلس أمامه أبرز له فرمانا من الباب العالى يأمره بالتوجه الى الحضرة العلية فوضعه الشريف على رأسه علامة الخضوع واعلن استسلامه التام لرغبة سيده ثم قبض عليه مع ثلاثة من اولاده وارسلوا تحت الحراسة الى جدة ثم أبحر بعد بضعة ايام الى السويس وسوف يرسل من هناك الى استانبول ليقدم حسابا عن فترة حكمة وعند القبض على الشريف تم نقل حريمه وأطفاله الصغار الى منزل آخر وتم جرد ممتلكاته الشاسعة وأمواله التى جمعها بكل وسائل العسف والجور خلال فترة حكمه الطويلة »